

الديموغرافيا (علم السكان)**Demography****مفهوم الديموغرافيا (علم السكان)**

كلمة ديموغرافيا مشتقة من اللغة اليونانية، وتتألف من مقطعين: (demo) الذي يعني الشعب و (Graphy) يعني القياس والوصف، ليكون معنى الكلمة (وصف السكان)، ويسمى مصطلح الديموغرافيا بعلم السكان، حيث يقوم بإحصاء وعدّ السكان بشكل أساسي، وما يتفرع عن هذا الإحصاء من دراسات علمية تتعلق بحجم السكان وتوزيعهم وبنائهم ونموهم .

إذاً لا يقتصر مصطلح الديموغرافيا أو علم السكان على العدّ فقط، إنما يتجاوز ذلك إلى أدق التفاصيل المتعلقة بهؤلاء السكان، كما يمتلك الباحث الديموغرافي قدرة على رصد المستقبل السكاني لفئة من الناس من خلال دراسة بياناتهم الإحصائية، وبشكل عام يقوم هذا العلم على دراسة الولادات والوفيات والهجرة والعمري للسكان والهجرة، وهذه البيانات المجردة التي يقوم علم الديموغرافيا على إحصائها يتفرع عنها الكثير من البيانات التحليلية الأخرى.

وبذلك يمكن تعريف الديموغرافيا بأنه العلم الذي يتناول دراسة المجتمعات البشرية من حيث حجمها وتطورها وخصائصها وحركتها العامة .

الفكر السكاني القديم

إن الاهتمام بموضوع السكان من حيث الحجم وحالات الزواج والطلاق والنسل هو قديم منذ نشوء الحضارات والأمم الأولى، كما أن دراسة السكان جذبت انتباه الكثير من المفكرين والكتاب منذ أقدم العصور وكانت الكتابات القديمة تضم بين ثناياها الكثير من الأفكار التي تعالج العلاقة بين السكان والموارد الاقتصادية والحجم الأمثل للسكان وغيرها من الأفكار، وتعدّ هذه الكتابات نواة النظريات السكانية المعروفة في الوقت

الحالي، وسوف نتعرف على بعض الاهتمامات والأفكار المتعلقة بموضوع السكان في الحضارات القديمة على النحو الآتي :

أولاً - الحضارة السومرية

نشأت الحضارة السومرية في جنوب العراق منذ أكثر من سبعة آلاف سنة، وعرفت باسم بلاد سومر وأهم ما تميزت به اختراع الكتابة المسمارية، وتشريع العديد من القوانين التي تنظم حياة الإنسان السومري وعلاقته بالدولة وضمان حقوقه وحرياته، حيث شمل القانون السومري العلاقات التجارية، والعلاقات الزوجية بوجه عام، وأجاز هذا القانون تعدد الزوجات للرجل فله الحق أن يتخذ له زوجة ثانية عند انحراف زوجته أخلاقياً كذلك تنظر الأخلاقيات السومرية إلى أن المرأة يجب أن تتجنب أكبر عدد ممكن من الأبناء لزوجها وللدولة، وإذا كانت عاقراً جاز طلاقها لهذا السبب وحده، وإذا كرهت أن تقوم بواجبات الأمومة فكانت تُقتل غرقاً .

ثانياً - الحضارة البابلية

نشأت الحضارة البابلية في وسط العراق في محافظة بابل الحالية، ويُعدّ حمورابي أشهر ملوكها الذي عُرف بتشريعه للعديد من القوانين سميت بشريعة حمورابي، وضمت 285 قانوناً نظمت الأملاك المنقولة والأملاك العقارية والتجارة والصناعة والأسرة والعمل وعدداً من الأخلاقيات ذات النتائج الديموغرافية ، حيث اقتصر زواج البابلي على زوجة واحدة عادةً، ويُصبر على طلاقها إذا كانت عاقراً، وينص أحد القوانين على أن المرأة غير الحريصة على أداء واجبها، والمهملة لشؤون بيتها، والمستخفةً بالعناية بأطفالها يجب أن تُلقى بالماء.

ثالثاً - الحضارة الآشورية

نشأت الحضارة الآشورية شمال العراق بالقرب من ضفاف نهر دجلة، وسميت بهذا الاسم نسبةً إلى الإله آشور، وتميزت بالعديد من القوانين والدولة المركزية القوية، ويتوزع المجتمع الآشوري في خمس طبقات: الأعيان ورجال الصناعة المنتظمون في هيئات وأرباب المهن والحرف والمزارعون في الريف، وأسرى الحرب أو سجناء الديون، وشجع هذا المجتمع على الإكثار من النسل بقوانينه الأخلاقية، وعُدّ الإجهاض جريمة يُعاقب عليها القانون بالإعدام، والمرأة التي تجهض نفسها تحرق بعد موتها.

رابعاً - حضارة مصر القديمة

تمتد الحضارة المصرية إلى بضعة آلاف من السنين ما قبل التاريخ الميلادي، وتميزت بالتطور الكبير في مجالات الحياة العلمية والفكرية، واستندت إلى تنظيمات سياسية وإدارية وتشريعات اجتماعية واقتصادية

وتقدمت فيها الفلسفة والعلوم والآداب والفنون والزراعة والصناعة، وبالنسبة للوضع الديموغرافي تذكر المصادر أن طبقات المسؤولين والأستقراطيين والأثرياء يميلون إلى تعدد الزوجات، أما عامة الشعب فيكون بزوجة واحدة وكان الطلاق نادراً ما يحدث إلا في عهد الاضمحلال، وسادت الأسر الكبيرة بحيث يصعب على الأثرياء إحصاء نسلهم، ويعود ذلك إلى الزواج المبكر والرغبة في الإنجاب وتعدد الزوجات .

خامساً – الحضارة الصينية

إن تعاليم كونفوشيوس رجل الحكمة هي التي تغلبت على غيرها من تعاليم وشرائع، حيث اهتم كثيراً بفكرة التناسب بين مساحة الأرض وعدد السكان، واعتقد أن مسؤولية الدولة أن تنقل السكان من المناطق المزدحمة بالسكان إلى المناطق الأقل ازدحاماً، ولكونفوشيوس آراء معينة حول الزواج وتزايد السكان وإنتاجية العمل وأسباب الوفاة، وأشار إلى أن التزايد المفرط للسكان من شأنه أن يخفض من إنتاجية العامل، وبالتالي يحصل انخفاض في مستوى المعيشة، كما أن الزواج المبكر يسبب ارتفاع معدل الوفيات عند الأطفال، وعلى الرغم من أن هذه الآراء تبدو مؤيدة للحد من الزيادة السكانية، فإن كونفوشيوس من خلال كتاباته الأخرى كان بصورة عامة يؤيد تزايد السكان ويحث على الإنجاب، كما أوضح أن هناك العديد من العوامل التي تؤثر على نمو السكان مثل نقص الغذاء والحرب والزواج المبكر والتكاليف المبالغ فيها عند الزواج .

وعدّ الصينيون القدماء أن امتناع الرجل عن الزواج عيباً وجرماً بحق الأسلاف والدولة، وكان يعين موظف خاص مهمته التأكد من الزواج لكل رجل بلغ الثلاثين من عمره ولكل امرأة بلغت العشرين .

سادساً – الحضارة اليونانية

1- القانون الإسبارطي

اهتم كثيراً بتكوين الأمة القوية شديدة البأس التي تقوم على الشباب الأقوياء، وأكد على التدريب المستمر على الرياضة من قبل أبناء المجتمع لأجل أن يكون شعب إسبارطة قوياً، وكان لا يُسمح للأطفال الضعفاء والمشوهين أن يستمروا على قيد الحياة، فيؤتى بكل طفل إلى أمام مجلس الدولة فإذا ظهر أن الطفل مشوه يُلقى به من فوق الجبل، كذلك لم يشجع القانون على زواج الرجال الضعفاء حتى لا ينجبوا أطفالاً ضعفاء، وبالتالي كانت الدولة تشرف على الزواج، وحددت أن العمر المناسب للزواج عند الرجل هو بلوغ الثلاثين وعند النساء بلوغ العشرين، كما عُدت العزوبية جرماً يعاقب عليه القانون بحرمان العازبين من كثير من الحقوق منها حق الانتخاب .

2- أفلاطون

من أبرز الأفكار اليونانية السكانية هي مسألة الحجم الأمثل للسكان، فلقد اعتقد أفلاطون أن الحجم المناسب للمدينة الإغريقية حينذاك هو (5040) مواطناً مع ملاحظة أن العبيد لا يحسبون ضمن المواطنين وإذا كان السكان أقل من ذلك صعب عليهم الدفاع عن أنفسهم أمام الأعداء الخارجيين، أما إذا كان عددهم أكبر من العدد المفضل فإن ذلك ينعكس سلباً على أمور الإدارة وعمل المؤسسات الحكومية، واعتقد أفلاطون أن لهذا العدد دلالةً ومغزىً دينياً وأسطورياً لدى المواطنين، الأمر الذي أدى بالمواطنين إلى تقديس هذا العدد في حياتهم وفي حال زيادة عدد السكان عن هذا الحد الأمثل يجب أن يتدخل الحكام لإنقاذه عن طريق تحديد الزواج والنسل ومنع الهجرة إلى البلاد، أما في حال نقصان عدد سكان المدينة فيجب تشجيع النسل ومكافأة الأسر كثيرة النسل بالمال وأن يباح للأجانب التجنس بالجنسية اليونانية .

3- أرسطو

اتجه أرسطو في معالجته لموضوع السكان اتجاهاً أكثر واقعية من أستاذه أفلاطون، إضافةً أنه تناول العديد من المسائل السكانية مثل توزيع السكان ونموهم والحد الأمثل لحجمهم، حيث وزع المجتمع إلى وحدات تتضمن من يقومون بالمهن الطبيعية مثل الزراعة والصيد وتربية الحيوان، وإلى من يقومون بالمهن غير الطبيعية مثل التجارة والصناعة، كما اهتم أرسطو بالتوزيع العمري للسكان، وأجرى مفارقة بين الرجل والمرأة على أساس الاستعدادات الجسمية والعقلية، أما فيما يتعلق بنمو السكان فقد حذر أرسطو من النمو غير المتناسب بين طبقات المدينة، ونادى بضرورة تحديد عدد السكان تجنباً للفقر، ورأى أن أي زيادة في عدد السكان بمعدل أكبر من زيادة الأرض المستثمرة تؤدي إلى خلافات اجتماعية وتعرقل الحكومة عن القيام بعملها، وشبه أرسطو المدينة بالجسم الإنساني الذي يجب أن تنمو أجزاؤه بالتناسب دون أي خلل، كذلك يجب أن ينمو السكان بتناسب مماثل بحيث لا يطغى عدد سكان طبقة على العدد في طبقة أخرى .

وإذا كان أرسطو قد اعتنى بموضوع الحد الأمثل للسكان إلا أنه لم يحدد هذا الحد كما فعل أستاذه أفلاطون، لكنه اعتقد ضرورة وجود حجم ثابت للسكان تتحكم فيه الحكومة بحيث تحقق التناسب بين حجم السكان في المدينة وبين مواردهم خاصةً مساحة الأرض وقدرتها على إشباع حاجات السكان.

سابعاً - الفكر السكاني عند ابن خلدون العربي

عاش ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي، وقدم أفكاراً جوهرية أثرت فيما بعد في تطوير الاهتمام بدراسة السكان، ويقول جوزيف مايون في كتابه السياسات السكانية : > إن علامة القرن الرابع عشر

هي ابن خلدون الذي طور تحليلاً شاملاً لاتجاهات السكان لم نشهد له منافساً حتى عهد مالتوس فهو أول من وضع نظرية العلاقة بين حجم السكان والإنتاج الاقتصادي < .

لقد أكد ابن خلدون أن الزيادة في السكان هي السبب الجوهرية في الازدهار لأن الكثافة السكانية تؤدي إلى تقسيم العمل، وبالتالي تطوير الإنتاج ورفع معدلات النمو الاقتصادي، ويرى ابن خلدون أن المجتمعات تمر في مراحل تطويرية محددة تؤثر على المواليد والوفيات في كل مرحلة، حيث يشهد المجتمع في المرحلة الأولى من تطوره زيادة في معدلات المواليد ونقص في معدلات الوفيات بما يؤثر على نمو السكان وازدياد عددهم وتوصل إلى أن مستوى المعيشة وحجم الثروة يعتمدان على عدد السكان في المجتمع نفسه، والدولة في مرحلة نهوضها توفر الأسباب لزيادة سكانها وهذه الزيادة تكون سبباً لمزيد من الازدهار، أما في مرحلة انحطاط الدولة فتكون الظروف الديموغرافية مخالفة تماماً؛ إذ ينخفض فيها معدل الخصوبة والمواليد ويرتفع معدل الوفيات وتزداد الهجرة إلى الخارج ويحدث الفقر والمجاعات.

ويمكن إيجاز آراء ابن خلدون بالمسألة السكانية على النحو الآتي :

1- إن ارتفاع مستوى المعيشة هو السبب الرئيس في زيادة السكان والعكس صحيح.

2- تؤدي زيادة السكان إلى تقسيم وتنويع الأعمال والمهن وتعددها، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الدخل وتحسين مستوى المعيشة .

تاريخ الديموغرافيا

تعود البدايات الأولى للديموغرافيا إلى العالم الإنكليزي جون غروننت (John Graunt) الذي يعد أول من حاول القيام بأبحاث منظمة في مجال الديموغرافيا، ولُقّب بأب الديموغرافيا حيث قام بإجراء دراسة عن أسباب الوفيات وضمّنها بجدول بسيط للحياة، كما توصل إلى مجموعة من التعاميم المتعلقة بالولادات والوفيات والزواج والهجرة ، وأشار إلى أن الوفيات لم تكن حادثاً عفويّاً ، وإنما تتأثر بالعوامل الاجتماعية والوضع الثقافي إلى جانب أنها وقائع حيوية، وتناول في بحثه الكثير من القضايا السكانية حيث أصدر سنة 1662 كتاباً صغيراً بعنوان ملاحظات طبيعية وسياسية قائمة على أساس وثائق الوفيات، وبذلك حقق إحدى المراحل الكبرى في تطور الديموغرافيا، ويرى البعض أن غروننت ليس مؤسس الديموغرافيا فحسب بل هو مؤسس علم الإحصاء .

لقد جاء منهج غروننت منهجاً علمياً عندما درس الوفيات مستنداً إلى بيانات إحصائية، وتمكن من أن يحصل على أسباب الوفاة التفصيلية للفترة (1629-1659)، كما تمكن من جمع البيانات اللازمة لتصاريح

الدفن والتعميد مصنفة حسب الجنس لنفس الفترة، إضافةً لذلك حصل على معلومات عن المواليد استخلصها من تسجيل المعمدين في الكنائس، ولخص بياناته في جداول ثم بدأ بالمقارنات والتحليلات في أسباب الوفاة ومرحلة العمر وعدد السكان ومعدلات الولادات والوفيات

كانت دراسات جون غرونوت ومساهماته الأكثر أهميةً وشهرةً في التحليل الديموغرافي، مما أدى إلى تأثر العديد من الباحثين بها مثل يوهان سييلش وغوتلش أوردنونج ، وذلك عندما قاما بتحليل أعداد ما يقارب 1056 شخصاً في بعض المحافظات والمدن في بروسيا، ونتج عن ذلك صدور أول جدول إحصائي لسكان بروسيا في عام 1765 .

ظهرت عدّة تطوّرات في أوروبا في القرن الثامن عشر للميلاد مثل الاهتمام بالرعاية الصحية والتأمين على الحياة، مما أدى إلى زيادة الوعي بضرورة توفير سجلات مدنية تحتوي مجموعةً من الإحصاءات المهمة تشمل المواليد والوفيات، وقد اعتُمدت لاحقاً بدلاً من السجلات الخاصة بالكنيسة .

واستمرت الدراسات الديموغرافية بالتطور في القرن التاسع عشر للميلاد، واهتمت بشكلٍ أكبر بمتابعة معدلات الولادة والوفاة في الدول الصناعية، وازداد الاهتمام بمتابعة نتائج الإحصاءات الديموغرافية أثناء الفترة الزمنية بين الحربين العالميتين، فأُسّس الاتحاد الدولي للدراسات العلمية للسكان في عام 1928 .

خصائص الديموغرافيا

تتميّز الديموغرافيا بمجموعة من الخصائص أهمّها:

- 1- متابعة النمو والتغيّر الخاص في الهيكلية السكانية (تركيب السكان).
- 2- دراسة ومراقبة نمو وحجم السكّان، وتشمل متابعة معدلات المواليد والوفيات والهجرة ومعرفة أسباب الانتقال الجغرافي.

3- دراسة كثافة وتوزيع السكان .

4- وضع الأبحاث الديموغرافية التي تساهم في تحديد الحاجات العامة الحالية والمستقبلية للسكان.

مصادر البيانات الخاصة بالديموغرافيا

تعتمد الديموغرافيا للحصول على البيانات السكانية على مجموعة من المصادر أهمّها :

أولاً - التعداد السكاني

هي عملية جمع البيانات الاجتماعية والديموغرافية الاقتصادية المتعلقة بالأفراد في بلد أو إقليم معين وتصنيفها ونشرها، ويعتمد التعداد السكاني على مجموعة من الخصائص من أهمها:

- 1- يُجرى التعداد السكاني كل 10 سنوات عادةً.
- 2- يغطّي التعداد السكانيّ الدولة كاملةً أو جزءاً منها.
- 3- ينتهي التعداد السكاني في فترة زمنية معينة ومحددة.
- 4- تُنظّم الحكومة التعداد السكاني عن طريق لجنة للإشراف عليه.
- 5- تشمل عمليات التعداد السكاني جمع معلومات عن العائلات والأسر عن طريق زيارتهم في منازلهم.

ثانياً - التسجيل

هو مصدر من مصادر البيانات السكانية، ويعتمد على الإحصاءات الحيوية؛ إذ أن من واجب كل شخص قانونياً أن يُسجّل مجموعة من البيانات الإحصائية عنه التي تشمل معلومات السكن والولادة والزواج والطلاق، وأيّ معلومات أخرى يجب توفيرها للإحصاءات والأحداث الحيوية التي تُعدّ من العمليات المستمرة طوال السنة، ويُعدّ التسجيل من المصادر المهمة لمعلومات الأحوال الاجتماعية للمواطنين والحقوق الخاصة بهم والمنازعات المتعلقة بأحوالهم.

المراجع

- 1- خضور، يوسف (2007) - دراسات في التربية البيئية والسكانية. منشورات جامعة البعث، كلية التربية، حمص .
- 2- الخفاف، عبد علي (2007) - جغرافية السكان (أسس عامة). دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، عمان .
- 3- علي، يونس حمادي (2010) - مبادئ علم الديموغرافيا (دراسة السكان)، دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، عمان .